التناسب بين الصفات الإلهية والسياق القرآني عند ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) نماذج مختارة دراسة مقارنة تحليلية

by حسام محمد جمعة

Submission date: 20-Feb-2023 12:16AM (UTC+0300)
Submission ID: 2017991471
File name: 22.doc (176.5K)
Word count: 7375
Character count: 40649

التناسب بين الصفات الإلهية والسياق القرآني عند ابن عاشور
في تفسيره (التحرير والتنوير) نماذج مختارة دراسة مقارنة تحليلية

أ.م.د.حسام محمد جمعة | كلية الإمام الأعظم الجامعة

الملخَّص

حاز تفسير (التحرير والتنوير) «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» مكانةً مهمة بين كتب التفاسير، حتى أضحى أسرع كتب التفسير تلقفاً لخواطر الباحثين، وذلك لما اشتمل عليه من التحرير والتحقيق والتهذيب، بالإضافة إلى عنايته بالجانب البلاغي في القرآن الكريم، ومن جملة ذلك عنايتُهُ بحُسنِ اختيار الألفاظ، وبيان التناسب النظمي بين كلمات القرآن الكريم، وهذا البحث يبيّنُ جانباً من جوانب حُسنِ اختيار الألفاظ في القرآن الكريم؛ وهو حُسنُ مناسبة ـفات الله تعالى الواردةِ في ختام الآيات لمضمون الآيات، أو لما قبلها أو بعدها، فيجمعُ الأمثلةَ التي بيَّنَ فيها ابنُ عاشور مناسبةَ هذه الـ ـفات، ويوضِّحُ هذه المناسبةَ ويزيدُها بياناً و سيَّما المواضع التي أجملَ فيها ابنُ عاشور وجهَ التناسب، ويقارنُ كلامَ ابن عاشور بكلام جملةٍ من المفسِّرينَ الذي اعتنَوا بهذا الجانب أيضاً؛ لبيانِ وجوهِ ا تِّفاقِ وا ختلاف بين كلامه وكلامهم، ويُعينُ القارئَ على التدبُّرِ للقرآن الكريم بقدر الطاقة، ويُسهِمُ في الكشف عن الذَّوقِ البلاغيِّ عند ابن عاشور.

الكلمات المفتاحية: التناسب، ابن عاشور، الـ فات.

The proportionality between the divine attributes and the Qur'anic context according to Ibn Ashour In his interpretation (liberation and enlightenment) Selected models An analytical study

Summary

Tafsir (liberation and enlightenment) "liberating the correct meaning and enlightening the new mind from the interpretation of the Glorious Book" has gained an important place among the books of interpretation, until it became the fastest book of interpretation to capture the thoughts of researchers, due to what it included of editing, investigation and refinement, in addition to its attention to the rhetorical aspect of the Holy Qur'an. Among that is his concern for the good choice of words, and the statement of the systemic proportionality between the words of the Noble Qur'an, and this research shows an aspect of the good choice of words in the Noble Qur'an; And it is a good fit for the attributes of God Almighty contained in the conclusion of the verses to the content of the verses, or to what is before or after them, so it collects the examples in which Ibn Ashour demonstrated the appropriateness of these attributes, and clarifies this occasion and increases it with a statement, especially the places in which Ibn Ashour beautifulized

the aspect of proportionality, and compares the words of Ibn Ashour In the words of a group of commentators who also took care of this aspect; To clarify the aspects of agreement and disagreement between his words and theirs, and it helps the reader to reflect on the Holy Qur'an as much as possible, and contributes to revealing the rhetorical taste of Ibn Ashour.

Keywords: proportionality, Ibn Ashour, attributes.

أولاً: مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المستَحقِّ للحمد، المتـ ـف بالكمال والعظمة وكل المجد، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلباتها وأحوالها، والـ ـلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، الرحمة المهْدَاة، والنِّعْمَة المسْدَاة، وعلى آله وأ حابه ومَن وا ه، أما بعد.

أمَّا بعد:

فإن الإعجاز النظمي لهو أظهر وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وهو متعلّق بفنٍّ خاص من فنون اللغة، يتقنه سوى أ حاب القدم الراسخة في العربية من العُرْبِ الأقحاح، أ وهو فنُّ البلاغة، الذي يتذوقه العارفون بتـ اريف الكلام ودقائق المعاني، فيدركون ما انطوى فيه من أسرار، ويميزون الأساليب الر ـينة التي سلكها البيان القرآني في الإيضاح والتبيين، فيقرّون بضعفهم ويُدركون عجزهم عن مجاراة هذا النظم البديع.

وفي ذلك يقول الإمام (ابن عاشور): ((وإذ قد كان تف يل وجوه الإعجاز يحـ ـره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعاً إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القـ ـوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حـ ـول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة، ونكتاً من أغراض الخا ـة من بلغاء العرب مما يفيده أ ـل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التـ ـرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض))[1]

وإنَّ من صُوَرِ هذه البلاغةِ القرآنيةِ الباهرةِ حُسنُ اختيار ألفاظِهِ إذ أتَتْ كلُّ لفظةٍ من ألفاظه مستقرَّةً غيرَ قلقةٍ في موضعها الذي وردَتْ فيه، ملائمةً لسياقها أحسنَ التلاؤم وأكملَهُ.

وفي ذلك يقول الرافعي: ((ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تُعتبرَ الحروفُ بأصواتِها وحركاتِها ومواقعِها من الدلالة المعنويَّة استحال أن يقعَ في تركيبه ما يُسوّغ الحكمَ في كلمةٍ زائدة، أو حرفٍ مضطربٍ، أو ما يجري مجرى الحشوِ والاعتراضِ... بل نزلت كلماتُهُ منازلَها على ما استقرَّتْ عليه طبيعةُ البلاغة، وما قد يُشبِهُ أن يكون من هذا النحو الذي تمكَّنت به مفرداتُ النظام الشمسيِّ، وارتبطت به سائرُ أجزاء المخلوقات، لفة متقابلة بحيث لو نُزعت كلمةٌ منه أو أُزيلت عن وجهها، ثم أُديرَ لسانُ العرب كلُّهُ على أحسنَ منها في تأليفِها وموقعِها وسَدادِها لم يتهيَّأْ ذلك، و اتَّسعت له اللغةُ بكلمةٍ واحدة"[2].

ويتفرّع على الكلام السابق أنَّ من صُوَرِ حُسنِ اختيار الألفاظ أن تأتيَ لفاتُ الله تعالى الواردةُ في ختام الآية ملائمةً لمضمون الآية، أو لمضمون جملةٍ من الآيات قبلها أو بعدها، أي متناسقةً مع السياق المؤلف من السباق واللحاق.

ولقد جسّد (ابن عاشور) رحمه الله نموذجاً فذّاً بين عامّة المفسرين باهتمامه بهذا اللون البلاغي في القرآن الكريم، إذ كرّس جهده في مواضع متعددة بإبراز هذا الوجه التناسبي بين الـ لفات التي اشتملت عليها بعض خواتيم الآيات وبين مضامين هذه الآيات.

ومن هنا أفردت هذا البحث لأجمع بعض النماذج من تفسير ابن عاشور المعروف بـ (التحرير والتنوير) من عباراته التي خ ها للحديث عن هذه الجزئية، وأقارن كلامه بكلام بعض المفسرين ممن كانت لهم عناية بإبراز هذا الجانب البلاغي في القرآن الكريم.

ثانياً: أهمِّيَّة البحث:

تأتي أهمِّيَّةُ البحث من حيثُ إنَّه يجمعُ الأمثلةَ التي بيَّنَ فيها ابنُ عاشُور مناسبةَ سفات الله تعالى الواردةِ في ختام الآيات لمضامينها أو لسياقها، ويوضِّحُ هذه المناسبةَ ويزيدُها بياناً و سيَّما المواضع التي أجملَ فيها ابنُ عاشور وجهَ التناسب، ويقارنُ كلامَه بكلام جملة من المفسِّرين الذي اعتنَوا بهذا الجانب أيضاً؛ لبيانِ وجوهِ ا تِّفاقِ وا ختلاف بين كلامه وكلامهم، وإثراءِ البحث في هذه الجزئيَّة من جزئيَّات التلاؤم والتناسب، ويُعين القارئَ على التدبُّرِ للقرآن الكريم بقدر الطاقة، ويُسهم في الكشف عن الذَّوق البلاغيِّ عند ابن عاشور.

ثالثاً: أسباب اختيار البحث:

درست كتاب (التحرير والتنوير)، وتنبّهت أثناء قرائي له أن ابن عاشور لم يأخذ على نفسه – ضمن المنهج العلمي الذي اعتمده في تفسيره — أن يُشير إلى التناسب النظمي بين ال سفات الختامية وبين مضامين الآيات أو سياقها، ومع ذلك فإنه أفرد بعض الفقرات التي جادت قريحته بإيضاحها وببيان المناسبة المتعلقة بذلك بالتف سيل أو الإجمال حسب ما يقتضيه السياق، وبذا تُؤ ّصل هذه الجزئية لمنهج فرعي مسكوت عنه في تفسير ابن عاشور، وتؤكد عنايته بالجانب البلاغي عامّة، ثم الجانب النظمي خا صة، ثم الجانب التلاؤمي بين المفردات التي جاءت بـ صيغة ال فات الإلهية ومضمون الآيات بأخص الخا صة، وهذا ما دعاني إلى اختيار هذا البحث.

رابعاً: الدراسات السابقة:

لعل الإشارة إلى هذه الزاوية من البحث جديد من نوعه؛ إذ لم أجد من الباحثين مَن تنبّه إلى هذا الربط بين ال سفات الختامية ومضامين الآيات وسياقها ضمن مَن درس تفسير (ابن عاشور)، سيما أن (ابن عاشور) لم يُشِر إلى هذه الزاوية البحثية في منهجه العام الذي اعتمده في التفسير، بالإضافة إلى أن النماذج التي توضح هذه الفكرة قليلة في تفسيره. و هناك مؤلف في التناسب عند ابن عاشور أ أن موضوع البحث يختلف في جوهره من حيث ان عمل الباحث كان يتكلم عن التناسب ال رفي والنحوي والبلاغي وايضا الشكلي والنطقي أما عملي كان دراسة مقارنة مع غيره من المفسرين في موضوع التناسب بين سياق الآية ونهايتها المختوم بال سفات اللإلهية , وهو عمل لم اجد من سبقني اليه

خامساً: حدود البحث:

اقتـرت في هـذا البحـثُ على دراسـة الأمثلـة الـتي بـيَّنَ فيهـا ابـنُ عاشـور مناسـبة ـفات الله الـواردة في ختـام الآيات لمضـمون الآيات وسـياقها في الزِّ ـف الثـاني مـن القـرآن الكـريم مـن سـورة الحـجِّ حـتى نهايـة القـرآن؛ إذ يـ ـعب حـ ـر جميـع الأمثلـة في بحـث واحـد؛ كونهـا تحتـاج إلى إيضـاحٍ وبيـان ومقارنـة ليتميـز فهـم ابـن عاشـور عـن غـيره مـن المفسـرين، وسـبب اعتمـاد الـ ـف الثـاني مـن القـرآن الكـريم دون الـ ـف الأول في هـذا البحـث أني أفـردت للـ ـف الأول مـن القـرآن الكـريم بحثـاً آخر.

أمـا النمـاذج المختـارة للدراسـة فهـي النمـاذج الـتي ـرّح فيهـا ابـن عاشـور بـذكر المناسـبة بـين الـ ـفات الإلهيـة الختاميـة وبـين السـياق القـرآني، دون المواضـع الـتي يُلمـح فيهـا وجـه التناسـب أو يمكـن استنباطه، وهذا سبب اختيار هذه النماذج، وهو تـ ـريح ابن عاشور بذكر المناسبة فيها.

سادساً: منهج البحث:

تنوَّع المنهج العلمي الذي بنيت عليه البحث على ركائزٍ ثلاث، وهي كما يلي:

أ. **الاســتقراء**: وذلـك باسـتقراءِ كتـابِ «تحريـر المعـنى السـديد وتنـوير العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد» بغيـةَ اسـتخراج المواضـع الـتي أوضـح فيهـا (ابـن عاشـور) مناسـبة ـفات الله الواردة في ختام الآيات لمضمون الآيات وسياقها.

ب. **التحليــل**: وذلـك بتحليـلِ كـلامِ ابـنِ عاشـور؛ سـتنباطِ المناسـبات بـين ـفات الله الواردة في ختام الآيات ومضمون الآيات وسياقها وما ينبني على ذلك من فوائد.

ت. **المقارنــة**: وذلـك بمقارنـةِ كـلامِ ابـنِ عاشـور بكـلام جملـة مـن المفسِّـرين الـذي اعتنَـوا بهـذا الجانـب أيضـاً؛ لبيـانِ وجـوهِ ا تِّفـاقِ وا ـختلاف بـين كلامـه وكلامهـم، وإثـراءِ البحـث في هذه الجزئيَّة من جزئيَّات التلاؤم والتناسب.

خطة البحث:

لكـي يتناسـق البحـث مـع الـنمط العـام للأبحـاث الأكاديميـة فـإني قمـت بتقسـيمه إلى تمهيـد وثلاثة مباحث على النحو الآتي:

التمهيد حول ابن عاشور وتفسيره (التحرير والتنوير)

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حياة (ابن عاشور) ونشأته.

المطلب الثاني: روافده الفكرية والمعرفية.

المطلب الثالث: منهجه في التفسير.

المبحث الأول: التناسب وأقسامه وعلاقته بالإعجاز القرآني

المطلب الأول: مفهوم التناسب.

المطلب الثاني: أنواع التناسب.

المطلب الثالث: التناسب وإعجاز القرآن.

المبحث الثاني: النماذج من سورة الحجّ حتّى سورة لقمان.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: سورة الحج.

المطلب الثاني: سورة النور.

المطلب الثالث: سورة العنكبوت.

المطلب الرابع: سورة الروم.

المطلب الخامس: سورة لقمان.

المبحث الثالث: النماذج من سورة الأحزاب حتّى آخر القرآن الكريم.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: سورة الأحزاب.

المطلب الثاني: سورة فاطر.

المطلب الثالث: سورة الفتح.

المطلب الرابع: سورة التغابن.

خاتمة: تحتوي النتائج.

وإني إذ أخوض غمار هذا البحث فإني أدعي أن ما فيه من ترتيب وتهذيب وتحليل كله حق، إنما هو جهد الباحث يقدمه لقرّاء العلم وطلاّبه، وحسبي في ذلك أني بذلت جهدي، فإن وفّقت في ذلك فمن الله وله الحمد، وإن لم أوفّق فمن نفسي، والله ورسوله وعلماء تفسير الكتاب المجيد من هذا الخطأ بُرَآء، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

المطلب الأول: حياة (ابن عاشور) ونشأته:

يجد الباحث في حياة ابن عاشور نفسه أمام عالمٍ جليل، تنوعت معارفه، فهو الإمام الأبرز في المغرب أثناء عصره بلا منازع، اسمه محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، ينحدر من أسرة آل عاشور التي يعود أصلها إلى (محمد بن عاشور) المتوفى سنة 1110هـ، والذي وُلد بمدينة (سلا) بالمغرب الأقصى بعد خروج والده من الأندلس فاراً بدينه من القهر والتنكير.[3]

ولد محمد الطاهر ابن عاشور بـ (المرسى) إحدى الضواحي الشمالية لتونس سنة 1296هـ - 1879م، ولما يفع اتجه إلى حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بجامع الزيتونة وصار ينهل من معينه كل العلوم الأساسية لطالب العلم.[4]

المطلب الثاني: روافده الفكرية والمعرفية:

أولاً: مكانته العلمية:

عُرِف الإمام (محمد بن عاشور) بالضلوع العلمي في شتّى فروع الشريعة والفكر والفلسفة، وإن مَن يتتبع سيرة أسرته ومراحل حياته بالتفصيل يكتشف الأبعاد التي تتبلور فيها شخصيته العلمية، فقد ظهر دور أسرة (ابن عاشور) في الحياة التونسية عموماً، ومن هنا فإن أثرها في ابنها وسليلها (ابن عاشور) سيكون أظهر وأولى.

ثانياً: شيوخه:

ولقد تعدد أساتذته وشيوخه الذين نهل من علومهم، وكان من أكثرهم تأثيراً فيه:

أ. الشيخ (محمد العزيز بوعتور جدّه لأمه).[5]

ب. الشيخ (عمر بن أحمد) المعروف بـ (ابن الشيخ وسيدي عمر).[6]

ت. الشيخ (سالم بو حاجب).[7]

ثالثاً: تلاميذه:

وكذلك تعدد تلاميذه ومَن أخذ عنه وورث علمه، فكان من أهمهم:

أ. محمد الفاضل ابن عاشور، وهو ابن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور.

ب. عبد الملك ابن عاشور، وهو الولد الثاني للإمام محمد الطاهر ابن عاشور.

ت. محمد الحبيب ابن الخوجة.[8]

رابعاً: مؤلفاته:

نتيجة نشاط الحركة العلمية التي قام بها ابن عاشور فقد تعددت مؤلفاته، وتوزعت في عديد من العلوم، ومن أهم مؤلفاته:

1- تفسير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد).

2- (النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الـ حيح).

3- (مقا د الشريعة الإسلامية).

4- (أ ول التقدّم في الإسلام).

5- (الوقف وأثره في الإسلام).

بالإضافة إلى عدد من المخطوطات التي لم تطبع بعد.[9]

المطلب الثالث: منهجه في التفسير:

حظي تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) بمكانة جليلة بين تفاسير القرآن الكريم، وكانت مكانته هذه انعكاساً لما انطوى عليه من علوم ومعارف، حتى غدا تحفة علمية وموسوعة تفسيرية.

أولاً: باعث (ابن عاشور) على تأليف التفسير:

((كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد... هنالك عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمرته، واستعنت بالله تعالى واستخرته ... أقدمت على هذا المهم إقدام الشجاع على وادي السباع متوسطاً في معترك أنظار الناظرين، وزائراً بين ضباح الزائرين، فجعلت حقاً علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها..))[10]

ثانياً: خطة (ابن عاشور) في تفسيره:

يتناول ابن عاشور تفسير القرآن سورة سورة حسب ترتيبها في المـحف، وقبل أن يشرع في تفسيرها يجعل لكل سورة مقدمة، يذكر فيها اسم السورة وسبب تسميتها بهذا ا سم، ثم ترتيبها في النزول وأسباب نزولها على وجه الإجمال، أما أسباب نزول الآيات ذات السبب فيذكره عند تفسيرها، ثم يذكر عدد آيات السورة، ثم ما إذا كانت السورة مكية أو مدنية، وأخيراً أهم الأغراض التي تحتويها السورة ومقا صدها، مبيناً ما تحمله من وعد ووعيد، وإنذار وبشرى، أو نفي وتوبيخ، أو إثبات وتأييد

ثالثاً: منهج (ابن عاشور) في التفسير:

سلك ابن عاشور في تفسيره منهجي الرواية والدراية، أي طريقا التفسير بالمأثور والرأي، وتتحدد مقومات التفسير بالمأثور عنده في تفسير القرآن بالقرآن، والتفسير بالحديث النبوي، والتفسير بأقوال الـصحابة، والتفسير بأقوال التابعين، والتفسير بأسباب النزول، والتفسير بالقـصص، والتفسير بالناسخ والمنسوخ، والتفسير بالقراءات، والتفسير بأقوال من التوراة والإنجيل.

أما مقومات التفسير بالرأي عند ابن عاشور فهي: الشعر، ثم اللغة، ثم علوم البلاغة، ثم ا ستعانة بأقوال فقهاء الأمصار، ثم ا ستعانة بأقوال الفلاسفة وعلماء الهيئة.

المبحث الأول: التناسب وأقسامه وعلاقته بالإعجاز القرآني:

المطلب الأول: مفهوم التناسب

أولاً: التناسب في اللغة:

عرّف ابن فارس التناسب بقوله: ((النون والسين والباء كلمة واحدة مقياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب، سمّي بذلك لاتصاله وللاتصال به))[11]

وقال ابن منظور: ((النِّسبة والنُسبة والنَّسب: القرابة ... والنَّسيب المتناسب، وفلانٌ يناسب فلاناً فهو نسيبه أي قريبه، ليس بينهما نسب أي مشاكلة)).[12]

وقال الزبيدي: ((المناسبة المشاكلة، يقال: بين الشيئين مناسبة وتناسب، أي مشاكلة وتشاكل)).[13]

يتبين من التعريفات السابقة أن التناسب يدل على معاني القرابة وا ت ال وا نسجام، ويشير كذلك إلى وجود الترابط والتشاكل بين المتناسبين، الأمر الذي يتضمن معنى التلاؤم وا تساق بينهما بحيث يشكّلان معاً وحدة مترابطة منسجمة.

ثانياً: التناسب في الاصطلاح:

عرّف السيوطي المناسبة بقوله: ((المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عامٌّ أو خاصّ، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدّين، ونحوه)).[14]

ولقد أشار من قبله الزركشي والبقاعي إلى موضوع هذا العلم وفائدته، فقال الزركشي عن فائدة هذا العلم: ((جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك ا رتباط، ويـ ير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلاحم الأجزاء)).[15]

وقال البقاعي عن موضوع هذا العلم: ((تعرّف علل الترتيب، وثمرته ا طلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء، بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من ا رتباط والتعلّق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال)).[16]

فالمفهوم العام للتناسب والمناسبة هو أنه ذلك الترابط الواقع بين الآيات والسور الذي يفضي بشكل ما إلى القول بأن القرآن الكريم مترابط بعضه ببعض وكنصٍ واحد، وأنَّ كل آية منه تفضي إلى ما بعدها، وكذلك السورة تحيل إلى ما يليها، وكذلك يبين ترابط الأجزاء ضمن الآية الواحدة وعلاقاتها بعضها ببعض.(17)

المطلب الثاني: أنواع التناسب

يُفهم من كلام البلاغيين أن التناسب يُقسم قسمين، إذ قد يكون تناسباً مقامياً، وقد يكون تناسباً مقالياً، وقد يُعبّر عن التناسب المقامي بالتناسب الحالي، وعن التناسب المقالي باللفظي، وحا ل كل ذلك أن القسمة ثنائية أكثر، وعامة تطبيقات التناسب ونماذجه تنضوي ضمن القسمين المقامي والمقالي.

أولاً: التناسب المقامي:

والمق ود به مجموع المعطيات التي تراعي غرض الكلام وحال المتكلّم والمخاطب، بمعنى أنها عنا ر تتعلق بألفاظ النص، إنما بد ت وإشارات خارجة عنه، سواء قُ د بها مقام الكلام أو حال السامع أو المتكلم.

يقول السكّاكي في ذلك: ((إنَّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى عدم انطباقه)).(18)

ويقول أيضاً: ((فمقام التشكّر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذمّ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ في ذلك يباين مقام الهزل)).(19)

وقد أشار الجاحظ إلى هذا النوع من التناسب، فقال: ((ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار الحا ت، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسّم الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحا ت)).[20]

فالحا ل مما تقدّم أن المق ود من التناسب المقامي مراعاة قرائن النص من الأحوال التي تناسبه حسب سياقه، والتي يتفرّع عنها مراعاة حال المتكلّم والسامع وغرض الكلام، وفي ذلك يقول القزويني: ((فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام خلافه، ومقام الف ل يباين مقام الو ل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة)).[21]

ثانياً: التناسب المقالي:

ويُق د به التلاؤم بين أجزاء النصّ ومقاطعه وكلماته، ويُلحظ هذا التلاؤم في ف احة الكلام وملائمته للسياق، وحسن ا نتقال من معنى إلى آخر، ومن غرض إلى غرض، وسوق الألفاظ والتعبيرات المناسبة لكل ذلك.

و يخفى أن هذا الجانب هو أحد أهم الأسس في نظرية النظم، والتي تشير إلى وظيفة الكلمة في موضعها، حيث قال عبد القاهر الجرجاني في ذلك: ((فإنّك ترى الكلمة تروقك وتُؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر)).[22]

ويتضمّن التناسب المقالي أيضاً حُسن ا نتقال من معنى إلى آخر، ودقة التأليف بين أجزاء الكلام على وجه تت ل فيه المعاني بعضها ببعض دون إخلال أو انقطاع، وإلى هذا يشير ابن الأثير بقوله: ((أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه خذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفرغ إفراغاً)).[23]

المطلب الثالث: التناسب وإعجاز القرآن

إنَّ من يقرأ كلام العلماء حول إعجاز الكريم يتيقن أنهم جعلوا مبدأ التناسب بين الألفاظ وسياقها من أهم الأ ول المعتمدة لبيان المعنى الجانب في القرآن الكريم، لذا فإن التناسب في الألفاظ والمعاني، أو كما سبق في المقام والمقال لهو الجانب الأبرز من خ ائص الإعجاز في الآيات والسور.

ولقد أشار فخر الدين الرازي إلى هذا المعنى حيث قال في حديثه عن أطراف البلاغة التي ترجع إلى النظم والتركيب: ((الطرف الأعلى هو أن يقع ذلك التركيب بحيث يمتنع أن يوجد ما هو أشدّ تناسباً واعتدا ً في إفادة ذلك المعنى منه)).[24]

ولقد ق د الرازي من قوله (الطرف الأعلى) أي ال نف الأعلى والنوع الأرقى من إعجاز القرآن الكريم، وذلك بأن تتناسب الألفاظ في إفادة المعنى تناسباً يمتنع معه أن يحلّ محله لفظ أو تركيب آخر.

وقد كان لعبد القاهر الجرجاني السبق في تقرير أهمية التناسب في إعجاز القرآن الكريم، وذلك في معرض تقعيده لنظرية النظم التي أبرزها، حيث وجد أن النظم يعتمد في الدرجة الأولى على التناسب والتلاؤم وا نسجام، حيث قال: ((إنّهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها، أو يُرى غيرها أ لمح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم – ولو حكّ بيافوخه السماء – موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول)).[25]

وإنَّ من أكثر المواضع التي يتجلّى فيها التناسب المعجز في استعمال الألفاظ بحيث يسدّ غيرها مكانها هي الفوا ل القرآنية، حيث قال السيوطي في و نفها: ((متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في مواضعها، متعلّقاً معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقاً تاماً بحيث لو طُرحت ختلّ المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سُكت عنها كمّله السامع بطبعه)).[26]

ومن الكلام السابق يتبين أهمية الفا لمة القرآنية، وكونها الركن الأبرز في إعجاز القرآن الكريم، وهذا الكلام بطبيعة الحال يتضمّن الإشارة إلى أهمية الد لالات الإلهية الواقعة في خواتيم الآيات وفواصلها، وكونها تحمل د لة إعجازية تستدعي دراستها والاهتمام بها.

المبحث الثاني: النماذج من سورة الحجّ حتّى سورة لقمان.

المطلب الأوّل: المثال الوارد في سورة الحج.

قولُهُ تعالى: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: 74].

يقول ابن عاشور في بيان الد لالتين الواردتين ومناسبتهما للسياق: ((وجملةُ {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} تعليلٌ لمضمونِ الجملةِ قبلها؛ فإنَّ ما أشركوهم مع الله في العبادة كلُّ ضعيفٍ ذليلٍ، فما قَدَروهُ حقَّ قَدْرِهِ؛ لأنَّهُ قويٌّ عزيزٌ، فكيفَ يشاركُهُ الضَّعيفُ الذَّليلُ؟!))[27].

ويؤخذُ من كلامه: أن جملة {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} استئنافٌ تعليليٌّ[28].

وتجدر الإشارة إلى أمر يتعلَّق بهذا المثال وما بعده من الأمثلة؛ وهو أن ختم الكلام بما يناسب ابتداءه في المعنى يسمَّى في علم البلاغة تشابهَ الأطرافِ، وهو داخل في مراعاة النظير؛ وهي أن يجمع المتكلم بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة على جهة التضاد[29].

ومن أبرز عنا صر جماليَّة هذا الفنِّ البلاغي: ا نسجامُ والتساوقُ والتناغمُ، وهي أمور يُشكُّ في انتمائِها إلى الجمال، وإيقاظِها الحسَّ الجماليَّ، وهذا الفنُّ البديعيُّ يُضفي على الكلام مظهراً من مظاهر القوَّة والمتانة؛ فإن المعانيَ المتناسبةَ يُعزِّزُ بعضُها د لةَ بعضٍ، ويشدُّ أَزْرَها[30].

وبيانُ وجهِ المناسبة متوقِّفٌ على النظر فيما وردَ قبل هذه الآية: فقد جاء قبل هذه الآية قولُهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: 73]، وهو مَثَلٌ ضُرِبَ لعجزِ آلهة المشركينَ وضعفِها، ثمَّ جاءت هذه الآيةُ لبيان أنَّ المشركين ما عظَّموا الله تعالى حقَّ تعظيمِهِ؛ حيثُ جعلوا هذه الأ سنامَ على نهاية حَساستِها شريكةً له في المعبوديَّةِ، وأُكِّدَ هذا الغرضُ بختم الآيةِ بـ صفتَيِ القُوَّةِ والعِزَّة؛ لبيان أن المستحِقَّ للعبادة والتعظيم هو القويُّ العزيزُ، العاجزُ الذَّليلُ.

وذهب أيضاً إلى هذا المعنى جملة من المفسرين، منهم الإمام (ابنُ عطيَّة)، الذي قال في بيان مناسبة ـفتَي القُوَّةِ والعِزَّةِ لمضمون الآيةِ: ((والضميرُ في {قَدَرُوا} للكفَّارِ، والمعنى: ما وقَّوهُ حقَّهُ من التعظيمِ والتوحيدِ، ثمَّ أخبرَ بقوَّةِ اللهِ وعِزَّتِهِ، وهما فتانِ مناقضتانِ لعجزِ الأ نامِ))[31].

وأشارَ (البيضاويُّ) أيضاً إلى هذه المناسبةِ؛ فقال: ((﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلقِ الممكِناتِ بأسرِها ﴿عَزِيزٌ﴾ يغلبُهُ شيءٌ، وآلهتُهم التي يعبدونَها عاجزةٌ عن أقلِّها، مقهورةٌ من أذلِّها))[32].

وتبعَهُ (أبو السُّعود) فقال: ((﴿إِنَّ الله لَقَوِيٌّ﴾ على خلقِ الممكِناتِ بأَسْرِها، وإفناءِ الموجوداتِ عن آخرِها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على جميعِ الأشياءِ، وقد عُرِفَتْ حالُ آلهتِهم المقهورةِ لأذلِّها، العاجزةِ عن أقلِّها))[33].

المطلب الثاني: المثالان الواردان في سورة النور.

المثال الأول: قولُهُ تعالى: {وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النور: 18].

ذكر ابن عاشور أنَّ المرادَ بتبيينِ الآياتِ: جعلُها واضحةَ الد لةِ على المق ود، والمرادَ بالآيات: آياتُ القرآن النازلةُ في عقوبةِ القَذْفِ وموعظةِ الغافلينَ عن المحرَّماتِ[34]، ثمَّ أجملَ وجهَ مناسبةِ الو فينِ للآية؛ فقال: ((ومناسبةُ التذكيرِ بـ فتَي العلمِ والحكمةِ ظاهرةٌ))[35].

لم يف ّل ابن عاشور في وجه المناسبة؛ لتقدُّمِ ذلك في مواضع سابقة؛ فقد جرَتِ العادةُ بختم كثيرٍ من آيات الأحكام بمثلِ هاتينِ الـ ّفتينِ.

ولقد ذكر ابن عاشور وجه المناسبة بين هاتين الـ فتين والسياق الذي وردتا به في مواضع متعددة، ففي تفسير قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النساء: 26] قال ابن عاشور: ((وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ مُنَاسِبٌ لِلْبَيَانِ وَالْهِدَايَةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي التَّوْبَةِ بِطَرِيقِ الْوَعْدِ بِقَبُولِهَا، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ أَثَرُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ فِي إِرْشَادِ الْأُمَّةِ وَتَقْرِيبِهَا إِلَى الرشد))[36].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 71] ((وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ تَذْيِيلٌ، أَيْ عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ حَكِيمٌ فِي مُعَامَلَتِهِمْ عَلَى حَسَبِ مَا يعلم مِنْهُم)).[37]

وفي تفسير قوله تعالى: {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {التوبة: 15]، يقول ابن عاشور: ((وَالتَّذْيِيلُ بِجُمْلَةِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِإِفَادَةِ أَنَّ اللَّهَ يُعَامِلُ النَّاسَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَأَنَّهُ حَكِيمٌ يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا فِيهِ تَحْقِيقُ الْحِكْمَةِ، فَوَجَبَ عَلَى النَّاسِ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، وَأَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تكثيرا لل لاح)).[38]

وكذا كان الشأن أيضاً عند (ابن عطية)، فقد ذكر ال فتين على سبيل الإجمال فقال: ((و{عَلِيمٌ حَكِيمٌ} فتانِ تقتضيهما الآيةُ))[39].

ويلاحظ: أنَّهُ أشارَ إلى مناسبة ال فتينِ للآية من غير بيان وجهِ اقتضائها لهما.

وأمَّا (الرازيُّ) فجاء بالمعنى مف ّلاً، فقال بعد أن ذكرَ أنَّ المرادَ من الآياتِ: ما به يعرفُ المرءُ ما ينبغي أن يتمسَّكَ به، وذكر أنَّه تعالى لأنَّه عليم حكيم يجبُ أن يُطاعَ: ((لأنَّ من يكونُ عالماً يجبُ قبولُ تكليفِهِ؛ لأنَّهُ قد يأمرُ بما ينبغي، ولأنَّ المكلَّفَ إذا أطاعَهُ فقد يعلمُ أنَّهُ أطاعَهُ، وحينئذ يبقى للطاعةِ فائدةٌ، وأمَّا من كانَ عالماً لكنَّهُ يكونُ حكيماً.. فقد يأمرُهُ بما ينبغي، فإذا أطاعَهُ المكلَّفُ فقد يُعذِّبُ المطيعَ، وقد يُثيبُ العا يَ، وحينئذ يبقى للطاعةِ فائدةٌ، وأمَّا إذا كانَ عليماً حكيماً فإنَّهُ يأمرُ إ بما ينبغي، و يُهمِلُ جزاءَ المستحِقِّينَ؛ فلهذا ذكرَ هاتينِ ال ّفتينِ، وخ ّهما بالذِّكرِ))[40].

المثال الثاني: قولُهُ تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور: 32].

قال ابنُ عاشور: ((وذكرُ{عَلِيمٌ} بعدَ{وَاسِعٌ} إشارةٌ إلى أنَّهُ يُعطي فضلَهُ على مقتضى ما علمَهُ من الحكمةِ في مِقدارِ الإعطاءِ))[41].

ويلاحظ: أنَّهُ بيَّنَ مناسبةَ ذكر الو ف الثاني بعد الأوَّل[42]، وفي ضمن ذلك إشارةٌ إلى مناسبة الو فينِ معاً للآية.

وأكّد (ابنُ عطيَّة) هذا المعنى فقال: ((وقولُهُ: {وَاسِعٌ عَلِيمٌ} ـفتانِ نحوُ المعنى الذي فيهِ القولُ؛ أي: واسعُ الفضلِ، عليمٌ بمستحِقّ التوسعةِ والإغناءِ))[43].

وقوله: ((ـفتانِ نحوُ المعنى الذي فيه القولُ»؛ يعني: أنَّهما ـفتانِ مناسبتانِ للمعنى الذي تتحدَّثُ عنه الآيةُ؛ لأن الآية بحسَبِ الظاهر فيها وعدٌ من الله تعالى بإغناءِ من يتزوَّجُ والتوسعةِ عليه؛ فناسب ذلك ذكرُ هاتينِ الـ ّفتينِ؛ فهو سبحانه وتعالى واسعُ الفضل والعطاء، يُعطي ويمنعُ بمقتضى علمِهِ وحكمتِهِ)).

ويقول (الرازي): ((أما قوله وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ فالمعنى أنه سبحانه في الإفضال ينتهي إلى حد تنقطع قدرته على الإفضال دونه لأنه قادر على المقدورات التي نهاية لها وهو مع ذلك عليم بمقادير ما ي لمحهم من الإفضال والرزق)).[44]

ويؤكد (البيضاوي) المعنى الذي ذكره (الرازي)، فيقول: (({والله واسع} ذو سعة تنفد نعمته إذ تنتهي قدرته، {عَلِيمٌ} يبسط الرزق ويقدر على ما تقتضيه حكمته))[45]

المطلب الثالث: المثال الوارد في سورة العنكبوت.

قولُهُ تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت: 26].

قال ابنُ عاشور في جملة {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}: ((وهي جملةٌ واقعةٌ موقعَ التعليلِ لمضمونِ: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}؛ لأنَّ من كان عزيزاً يعتزُّ به جارُهُ ونَزِيلُهُ، وإتباعُ و ـفِ العزيزِ بالحكيم لإفادةِ أنَّ عِزَّتَهُ مُحكَمةٌ واقعةٌ موقعَها المحمودَ عند العُقَلاءِ؛ مِثلُ ن ـرِ المظلوم، ون ـرِ الدَّاعي إلى الحقِّ، ويجوز أنْ يكونَ الحكيمُ بمعنى الحاكمِ، فيكون زيادةَ تأكيد معنى العزيز))[46].

ويلاحظ: أنَّهُ مع بيانه لمناسبة الو ـفينِ لقوله تعالى: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} بيَّنَ مناسبةَ ذكرِ الو ـفِ الثاني بعد الأوَّل.

ويؤخذ من كلامه: أنَّ جملة {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} استئنافٌ تعليليٌّ، وقد مرَّ في أكثر من موضع أن الـ نفات التي هي موضوعُ البحث غالباً ما تأتي في استئناف تعليليٍّ أو تذييلٍ[47].

وقال ابنُ عطيَّةَ في بيان مناسبة ـفتَيِ العِزَّة والحكمةِ لذكر الهجرةِ إليه تعالى: ((وقولُهُ: {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} مع الهجرةِ إليهِ.. فتانِ بليغتانِ تقتضي استحقاقَ التوكُّلِ عليهِ))[48].

وقد أشار (الزمخشري) قبله إلى قريب من هذا المعنى، فقال: ((({إِنَّهُ هُوَ العزيز} الذي يمنعني من أعدائي {الحكيم} الذي يأمرني إ بما هو م لمحتي))[49]، وأكّد (البيضاوي) أيضاً المعنى الذي أشار إليه (الزمخشري) دون بيانٍ منهما لمناسبة الـ فتين لمضمون الآية.[50]

المطلب الرابع: المثال الوارد في سورة الروم.

قولُهُ تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم: 27].

قال (ابن عاشور): ((وَمِنْ جُمْلَةِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى عِزَّتُهُ وَحِكْمَتُهُ تَعَالَى فَحُسَّا بِالذِّكْرِ هُنَا لِأَنَّهُمَا الـ ـّفَتَانِ اللَّتَانِ تَظْهَرُ آثَارُهُمَا فِي الْغَرَضِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُ وَهُوَ بَدْءُ الْخَلْقِ وَإِعَادَتُهُ فَالْعِزَّةُ تَقْتَضِي الْغِنَى الْمُطْلَقَ فَهِيَ تَقْتَضِي تَمَامَ الْقُدْرَةِ. وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي عُمُومَ الْعِلْمِ. وَمِنْ آثَارِ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ وَأَنَّ الْغَايَةَ مِنْ ذَلِكَ الْجَزَاءُ وَهُوَ من حكمته))[51]

أي: أنَّ الآية تتحدَّثُ عن قضيَّة البعثِ وإعادةِ الخلق، وهو أمرٌ يكون إ للقادرِ الحكيمِ الذي يُعجِزُهُ شيءٌ، المتـ ـرِّفِ في خلقِه بما يشاءُ؛ فناسبَ ذكرُ هاتينِ الـ ـّفتينِ مضمونَ الآية غايةَ المناسبة.

وفي هذا المعنى أيضاً يقول (ابنُ عطيَّة) في بيان مناسبة ـفتَيِ العِزَّةِ والحكمةِ للآية: ((والعِزَّةُ والحكمةُ فتانِ موافقتانِ لمعنى الآيةِ؛ فبهما يُعيدُ، ويُنفِذُ أمرَهُ في عبادِهِ كيفَ شاءَ))[52].

وقريبٌ من ذلك قولُ الزمخشريّ(538هـ): (({وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}؛ أي: الو ـفُ الأعلى الذي ليس لغيره مِثلُهُ، قد عُرِفَ به ووُ ـِفَ في السماوات والأرض على ألسنةِ الخلائقِ وألسنةِ الد ئلِ؛ وهو أنَّهُ القادرُ الذي يعجزُ عن شيءٍ مِنْ إنشاءٍ وإعادةٍ وغيرِهما من المقدورات، ويدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}؛ أي: القاهرُ لكلّ مقدورٍ، الحكيمُ الذي يُجري كلَّ فعلٍ على قضايا حكمتِهِ وعلمِهِ))[53].

ويلاحظ: أنَّهُ جعلَ جملةَ {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} دليلاً على تفسير المثَل الأعلى بالو ـفِ الأعلى؛ وهو أنَّهُ سبحانه وتعالى القادرُ الذي يُعجِزُهُ شيءٌ، ومن جملة مقدوراته الإنشاءُ والإعادةُ المذكورانِ في ـدرِ الآية؛ فظهَرتْ مناسبةُ الـ ّفتينِ للآية غايةَ الظُّهور.

المطلب الخامس: المثالان الواردان في سورة لقمان.

المثال الأول: قولُهُ تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 16].

لعلَّ وجه مناسبة ـفتي (اللطيف والخبير) في هذه الآية تظهر بوضوح فيما ذكرَهُ ابنُ عاشور؛ من أنَّ اللطيفَ: هو من يعلمُ دقائقَ الأشياءِ، ويسلكُ في إي ـالها إلى من تـ ـلُحُ لهُ مَسْلكَ الرِّفقِ، فهو و ـفٌ مُؤذِنٌ بالعلمِ والقُدرةِ الكاملينِ؛ أي: يعلمُ ويَقدِرُ ويُنفِذُ قُدرتَهُ، وفي تعقيبِ {يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} بو ـفِهِ بـ (اللطيفِ).. إيماءٌ إلى أنَّ التمكُّنَ منها وامتلاكَها بكيفيَّةٍ دقيقةٍ تناسبُ فَلْقَ الـ ـخرةِ واستخراجَ الخردلةِ منها مع سلامتِهما وسلامةِ ما اتَّ ـلَ بهما من اختلالِ نظامِ الـ ُّنعِ[54].

ويقول (ابنُ عطيَّة) في بيان مناسبةِ و ـفَي اللطيفِ والخبيرِ للآية: ((و{لَطِيفٌ خَبِيرٌ} فتانِ ـئتانِ بإظهارِ غرائبِ القُدرةِ))[55].

والحا ـل: أنَّ لُقمانَ إنَّما ق ـدَ إعلامَ ابنِهِ بقَدْرِ قُدرةِ الله تعالى[56]، فضربَ له هذا المثلَ؛ تنبيهاً على قُدرةِ الله تعالى وإحاطةِ علمِهِ، وهذا يناسبُهُ ذكرُ هاتينِ الـ ّفتينِ في ختام الآية؛ لأنَّهما تُنبِئانِ عن القُدرةِ والعلمِ.

المثال الثاني: قولُهُ تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34].

قال ابنُ عاشور: ((وجملةُ {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} مستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ واقعةٌ موقعَ النَّتيجةِ لِمَا تضمَّنُهُ الكلامُ السابقُ؛ من إبطالِ شُبهةِ المشركينَ بقولِهِ تعالى: {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} ... والمعنى: أنَّ الله عليمٌ بمدى وعدِهِ[57]، خبيرٌ بأحوالِكم ممَّا جمعَهُ قولِهِ: {وَمَا

تَـدْرِي نَفْـسٌ مَـاذَا تَكْسِـبُ غَـدًا} إلخ؛ ولـذا جمـعَ بـينَ الـ ـّفتينِ: ـفةِ {عَلِـيمٌ}، و ـفةِ {خَبِـيرٌ}؛ لأنَّ الثانيةَ أخصُّ))[58].

ويلاحـظ: أنَّـهُ بـيَّنَ ارتبـاطَ الآيـة بالآيـة الـتي قبلهـا مـن خـلال جملـة {إِنَّ اللَّهَ عَلِـيمٌ خَبِـيرٌ}، وبيَّنَ أيضاً مناسبةَ ذكرِ الـ ـّفةِ الثانيةِ – وهي (خبيرٌ) – بعد الـ ـّفةِ الأُولى؛ وهي (عليمٌ).

وقـال (ابـنُ عطيَّـة) في بيـان مناسـبة و ـفَي العليمِ والخبيرِ لمضـمونِ الآيـةِ: ((و{عَلِـيمٌ خَبِـيرٌ} فتانِ مشابهتانِ لمعنى الآية))[59].

ويقـ ـد بقولـه: "مشـابهتانِ لمعـنى الآيـة": أنَّهمـا مناسـبتانِ لمضـمونِ الآيـةِ؛ وهـو بيـانُ الأمـور التي استأثرَ اللهُ تعالى بعلمِها؛ فو نفا العليمِ والخبيرِ يناسبانِ ذلك غايةَ التناسبِ.

ويُفهَـمُ مـن كـلام الـرازيِّ أنَّ ذكـرَ هـذينِ الو ـفينِ عَقِـبَ الأمـور الـتي اخـتصَّ الله تعـالى بعلمِهـا.. يُشـبِهُ ذكـرَ العـامِّ بعـد الخـاصِّ؛ قـال: ((ثمَّ قـالَ تعـالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلِـيمٌ خَبِـيرٌ} لمِا خ ـَّصَ أوَّ ً علمَـهُ بالأشـياءِ المـذكورةِ بقولـه: {إِنَّ اللَّهَ عِنْـدَهُ عِلْـمُ السَّـاعَةِ}.. ذكـرَ أنَّ علمَـهُ غـيرُ مختـصٍّ بهـا، بـل هـو عليمٌ مطلقـاً بكـلِّ شـيءٍ، وليسَ علمُـهُ علمـاً بظـاهرِ الأشياء فحسْـبُ، بـل خبـيرٌ؛ علمُـهُ وا ـلٌ إلى بواطنِ الأشياءِ، واللهُ أعلمُ بالـ واب))[60].

ويؤخـذ مـن مجمـوع أقـوالِ هـؤ ء المفسِّـرين: غـزارةُ المعـاني الـتي يمكـن أن يُفسَّـرَ بهـا وجـهُ مناسـبة هذين الو نفين للآية، وهذا وجهٌ من وجوهِ بلاغة هذا الكتاب المعجزِ.

المبحث الثالث: النماذج من سورة الأحزاب حتّى آخر القرآن الكريم.

المطلب الأول: المثال الوارد في سورة الأحزاب.

قولُـهُ تعـالى: {تُرْجِـي مَـنْ تَشَـاءُ مِـنْهُنَّ وَتُـؤْوِي إِلَيْـكَ مَـنْ تَشَـاءُ وَمَـنِ ابْتَغَيْـتَ مِمَّـنْ عَزَلْـتَ فَـلَا جُنَـاحَ عَلَيْـكَ ذَلِـكَ أَدْنَى أَنْ تَقَـرَّ أَعْيُـنُهُنَّ وَلَا يَحْـزَنَّ وَيَرْضَـيْنَ بِمَـا آتَيْـتَهُنَّ كُلُّهُـنَّ وَاللَّهُ يَعْلَـمُ مَـا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} [الأحزاب:51].

بـيَّنَ ابـنُ عاشـور مناسـبةَ الـ ـفتينِ (عليمـاً وحليمـاً) فقـال: ((والتـذييلُ بقولِـهِ:{وَاللَّهُ يَعْلَـمُ مَـا فِي قُلُـوبِكُمْ وَكَـانَ اللَّهُ عَلِيمًـا حَلِيمًـا} كـلامٌ جـامعٌ لمعـنى الترغيـبِ والتحـذيرِ؛ ففيـهِ ترغيـبُ النـبي ـلَّى اللهُ عليـه وسـلَّم في الإحسـانِ بأزواجِـهِ وإمائِـهِ والمتعرِّضـاتِ للتـزوُّجِ بـه، وتحـذيرٌ لهـنَّ مـن إضـمارِ عـدمِ

الرِّضى بما يَلْقَيْنَهُ من رسول الله ـلَّى الله عليه وسلَّم، وفي إجراء ـفتَيْ {عَلِيمًا حَلِيمًا} على اسمِ الجلالة إيماءٌ إلى ذلك؛ فمناسبةُ ـفةِ العليمِ لقولِهِ: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} ظاهرةٌ، ومناسبةُ ـفةِ الحليمِ باعتبارِ أنَّ المقـودَ ترغيبُ الرَّسولِ ـلَّى الله عليه وسلَّم في أليقِ الأحوالِ بـ ـفة الحليمِ؛ لأنَّ همَّهُ ـلَّى الله عليه وسلَّم التخلُّقُ بخُلُقِ اللهِ تعالى، وقد أجرى الله عليه ـفاتٍ من نعاتِهِ؛ مِثلُ رؤوفٍ رحيمٍ، ومِثلُ شاهدٍ))[61].

وحاـلُ كلامه: أنَّ مناسبةَ ـفة العليم تدلُّ عليها قرينةٌ لفظيَّةٌ في الآية؛ وهي قولُهُ تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}، وأمَّا مناسبةُ ـفةِ الحليمِ فيدلُّ عليها أحدُ غرضَيِ الكلام هنا؛ وهو ترغيبُهُ ـلَّى الله عليه وسلَّم في الإحسان.

وقال ابنُ عطيَّة في بيان مناسبة قولِهِ: {حَلِيمًا} للآية: ((وقولُهُ: {حَلِيمًا} ـفةٌ تقتضي َفْحاً وتأنيساً في هذا المعنى؛ إذ هي خواطرُ وفِكَرٌ يملكُها الإنسانُ في الأغلبِ))[62].

ويلاحظ: أنَّهُ بيَّنَ مناسبةَ ـفة الحِلمِ فقط، ولم يبيِّنْ مناسبةَ ـفةِ العلمِ.

المطلب الثاني: المثال الوارد في سورة فاطر.

قولُهُ تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: 44].

أوضح ابنُ عاشور مع مناسبة ذكر ـفتي العلم والقدرة في تذييل الآية فقال: ((وجملةُ {إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} تعليلٌ نتفاءِ شيءٍ يغالبُ مرادَ الله بأنَّ اللهُ شديدُ العلمِ واسعُهُ، يخفى عليه شيءٌ، وبأنَّهُ شديدُ القُدرةِ، وقد حـرَ هذانِ الو ـفانِ انتفاءَ أن يكونَ شيءٌ يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ عجزَ المريدِ عن تحقيقِ إرادتِهِ: إمَّا أن يكونَ سببُهُ خفاءَ موضعِ تحقُّقِ الإرادةِ، وهذا يُنافي إحاطةَ العلمِ، أو عدمَ استطاعةِ التمكُّنِ منهُ، وهذا يُنافي عمومَ القُدرةِ))[63].

وأشار قال (ابنُ عطيَّة) إلى قريب من هذا المعنى فقال: ((و{عَلِيمًا قَدِيرًا} ـفتانِ ثقتانِ بهذا الموضعِ؛ لأنَّ مع العلمِ والقُدرةِ يتعذَّرُ شيءٌ))[64].

بيانُ ذلك: أنَّ السِّياقَ للتهديد والوعيد؛ فبعد أن توعَّدَهم تعالى في الآيةِ السابقةِ بسُنَّة الأوَّلينَ في العذاب والهلاك بقوله: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} وقَّفَهم في هذه الآية على رؤيتهم لِمَا رأوا من ذلك في طريق الشام وغيره كديار ثمودَ ونحوِها[65]، والتهديدُ والوعيدُ يناسبُهُ ذكرُ الصِّفات التي تدلُّ على قُدرة المتوعِّدِ على إنفاذ وعيدِهِ.

وقريبٌ من ذلك أيضاً قولُ (أبي السُّعودِ): ((وقولُهُ تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} أي: مُبالغاً في العلمِ والقُدرةِ؛ ولذلكَ علمَ بجميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ، فعاقبَهم بموجَبِها.. تعليلٌ لذلكَ))[66].

وقولُهُ: ((تعليلٌ لذلك)) أي: تعليلٌ لكونه سبحانه وتعالى يُعجِزُهُ شيءٌ[67].

وعلى العموم فإنه من الواضح أن الكلام الذي أورده (ابن عاشور) فيه زيادة إيضاح وبيان على المعاني التي ذكرها (ابن عطية) وأبو السعود.

المطلب الثالث: المثالان الواردان في سورة الفتح.

المثال الأول: قولُهُ تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح: 4].

بيّن ابنُ عاشور وجه المناسبة بين الصفات الختامية في هذه الآية وبين مضمون الآية بقولِهِ: ((وجملةُ {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} تذييلٌ لِمَا قبلَهُ من الفتحِ والنَّصرِ وإنزالِ السَّكينةِ في قلوبِ المؤمنينَ، والمعنى: أنَّهُ عليمٌ بأسبابِ الفتحِ والنَّصرِ، وعليمٌ بما تطمئنُّ به قلوبُ المؤمنينَ بعد البَلْبَلةِ، وأنَّهُ حكيمٌ يضعُ مقتضَياتِ علمِهِ في مواضعِها المناسبةِ وأوقاتِها الملائمةِ))[68].

ولعل ابن عاشور تأثّر بـ (ابن عطية) في توجيه الصفات في هذا الموضع، حيث قال (ابنُ عطيَّة) في بيان مناسبة قوله تعالى: {عَلِيمًا حَكِيمًا} للآية: ((والعلمُ والإحكامُ صفتانِ مقتضيتانِ عِزَّةَ النَّصرِ لمن أرادَ الموصوفُ بهما نَصْرَهُ))[69].

وقوله: ((لمن أرادَ الموصوفُ بهما نصرَهُ)) يعني: لمن أراد الله تعالى نصرَهُ؛ فالموصوفُ بالعلم والحكمة هو الله تعالى.

ويلاحظ: أنَّهُ أجملَ وجهَ المناسبةِ هنا، ولم يُبيِّنْهُ، وسيأتي نوعُ بيانٍ له في المثال الآتي في قوله: ((قرنَ بالحكمةِ والعلمِ من حيثُ وعدُهُ بمغيَّباتٍ)).

وأمَّا (الرازيُّ) فقد وجّه المناسبة توجيهاً مختلفاً إذ لم يرَ أنَّ المناسبة هي تأكيدُ ما سبق من الفتحِ والنَّ ـرِ وإنزالِ السَّكينة في قلوب المؤمنين، بل بيَّنَ أوَّ ً مناسبة (عليماً) لما قبله من ذكر الإيمان الذي هو من أعمال القلوب، ثمَّ بيَّنَ مناسبةَ ذكر (حكيماً) بعد (عليماً)؛ فقال: ((وقولُهُ تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} لما قال: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وأيضاً لما ذكرَ أمرَ القلوبِ بقولِهِ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}، والإيمانُ من عملِ القلوبِ.. ذكرَ العلمَ؛ إشارةً إلى أنَّهُ يعلمُ السرَّ وأخفى، وقولُهُ: {حَكِيمًا} بعد قولِهِ: {عَلِيمًا} إشارةٌ إلى أنَّهُ يفعلُ على وَفْقِ العلم؛ فإنَّ الحكيم من يعملُ شيئاً متقَناً ويعلمُهُ؛ فإنَّ من يقعُ منه ُنعٌ عجيبٌ اتِّفاقاً يقالُ له: حكيمٌ، ومن يعلمُ ويعملُ على خلافِ العلم يقالُ له: حكيمٌ))[70].

المثال الثاني: قولُهُ تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: 7].

قال ابنِ عاشور: ((هَذَا نَظِيرُ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا إِلَّ أَنَّ هَذَا أُوثِرَ بِ ـفَةِ عَزِيزٍ دُونَ عَلِيمٍ لِأَنَّ الْمَقْ ُودَ مِنْ ذِكْرِ الْجُنُودِ هُنَا الْإِنْذَارُ وَالْوَعِيدُ بِمَزَائِمَ تَحِلُّ بِالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فَكَمَا ذُكِرَ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فِيمَا تَقَدَّمَ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ ن ـر النبيء َلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ بِجُنُودِ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمَا ذِكْرُ مَا هُنَا لِلْوَعِيدِ بِالْهَزِيمَةِ فَمُنَاسِبَةُ ِفَةِ عَزِيزٍ، أَيْ َ يغلبه غَالب))[71].

ولقد توسّع (ابنُ عطيَّة) في بيان المناسبة، فعقدَ مقارنةً بين هذه الآية وآيةٍ أخرى تُشبهُها في هذه السورة؛ وهي قولُهُ تعالى فيما سبقَ:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}؛ لبيانِ سرِّ قوله هنا:{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، وقوله فيما سبقَ:{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}، فقال: ((وقال تعالى في هذه:{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، فذكرَ ـفةَ العِزَّةِ من حيثُ تقدُّمُ ا نتقامُ من الكفَّارِ، وفي التي قبلُ قرنَ بالحكمةِ والعلمِ من حيثُ وعدُهُ بمغيَّباتٍ، وقرنَ باللفظتينِ ذكرَ جنودِ اللهِ تعالى التي منها السَّكينةُ، ومنها نِقَمُهُ من المنافقينَ والمشركينَ، فلكلِّ لفظٍ وجهٌ من المعنى))[72].

والحا ـل: أنَّـهُ ذكـر هنـا ـفةَ العِـزَّة؛ لأنَّـهُ جـاء قبـل هـذه الآيـة قولُـهُ تعالى:{وَيُعَـذِّبَ الْمُنَـافِقِينَ وَالْمُنَافِقَـاتِ وَالْمُشْـرِكِينَ وَالْمُشْـرِكَاتِ الظَّـانِّينَ بِاللَّهِ ظَـنَّ السَّـوْءِ عَلَـيْهِمْ دَائِـرَةُ السَّـوْءِ وَغَضِـبَ اللَّهُ عَلَـيْهِمْ وَلَعَـنَهُمْ وَأَعَـدَّ لَهُـمْ جَهَـنَّمَ وَسَـاءَتْ مَ ـيرًا}[الفتح: 6]، وفيـه ذكـرُ ا نتقـام مـن المنـافقينَ والمشـركينَ، وهـذا يناسـبُهُ ذكـرُ العِـزَّة الـتي بهـا يقتـدرُ المنـتقِمُ إنفـاذ انتقامِـهِ، وأمَّـا فيمـا سـبقَ فالحـديثُ عـن وعـدٍ بأمـرٍ غيـبيٍّ؛ هـو ازديادُ إيمـان المـؤمنين، وهـذا يناسـبُهُ ذكـرُ العلـم؛ لأنَّ الإيمـانَ مـن أعمـال القلوب الخفيَّة التي يطَّلعُ عليها غيرُهُ سبحانه وتعالى.

وهنـا تظهـر دِقَّـةُ البحـث في أسـرار اختيـار كـل كلمـة مـن كلمـات التنزيـل الحكـيم؛ لأن النَّظـرةَ العَجْلـى قـد تحكـم بأنَّ خاتمـة الآيتـين ينبغـي أن يكـون واحـدةً و سـيَّما بعـد تقـدُّمِ قولِـهِ تعـالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} في الآيتين.

وقريـبٌ مـن قـولِ ابـن عطيَّـة قـولُ (الـرازيّ) مستشـهداً بنظـائرَ في القـرآن الكـريم: ((قـالَ هنـاك: {وَكَـانَ اللَّهُ عَلِيمًـا حَكِيمًـا}، وهنـا: {وَكَـانَ اللَّهُ عَزِيـزًا حَكِيمًـا}؛ لأنَّ قولَـهُ: {وَلِلَّهِ جُنُـودُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} قـد بيَّنَّـا أنَّ المقـ ـودَ مـن ذكـرهم الإشـارةُ إلى شِـدَّةِ العـذاب، فـذكرَ العِـزَّةَ؛ كمـا قـال تعـالى: {أَلَـيْسَ اللَّهُ بِعَزِيـزٍ ذِي انْتِقَـامٍ} [الزمـر: 37]، وقـال تعـالى: {فَأَخَـذْنَاهُمْ أَخْـذَ عَزِيـزٍ مُقْتَـدِرٍ} [القمـر: 42]، وقال تعالى: {الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ}[الحشر: 23]))[73].

وقـولُ أبي السُّـعودِ: ((وَلِلَّهِ جُنُـودُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَـانَ اللَّهُ عَزِيـزًا حَكِيمًـا} إعـادةٌ لمـا سـبقَ، قـالُوا: فائـدتُها التنبيـهُ علـى أنَّ لله تعـالى جنـودَ الرحمـةِ وجنـودَ العـذابِ، وأنَّ المـرادَ هـا هنـا: جنـودُ العذابِ؛ كما يُنْبئ عنه التعرُّضُ لو ـفِ العِزَّةِ))[74].

المطلب الرابع: المثال الوارد في سورة التغابن.

قولُـهُ تعـالى: {إِنْ تُقْرِضُـوا اللَّهَ قَرْضًـا حَسَـنًا يُضَـاعِفْهُ لَكُـمْ وَيَغْفِـرْ لَكُـمْ وَاللَّهُ شَـكُورٌ حَلِيمٌ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [التغابن: 17–18]

قال ابن عاشور في بيان مناسبة فتي (شكور وحليم): ((وَالشَّكُورُ: فَعُولٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ مُبَالَغَةً، أَيْ كَثِيرِ الشُّكْرِ وَأُطْلِقَ الشُّكْرُ فِيهِ عَلَى الْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ عَلَى فِعْلِ الـ ـصَّالِحَاتِ تَشْبِيهًا لِفِعْلِ الْمُتَفَضِّلِ بِالْجَزَاءِ بِشُكْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ عَلَى نِعْمَةٍ وَ نِعْمَةَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا يَفْعَلُهُ عِبَادُهُ مِنَ الـ ـصَّالِحَاتِ، فَإِنَّمَا نَفْعُهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

تَفَضَّلَ بِذَلِكَ حَثًّا عَلَى ٰلَاحِهِمْ فَرَتَّبَ لَهُمُ الثَّوَابَ بِالنَّعِيمِ عَلَى تَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَتَلَطَّفَ لَهُمْ فَسُمِّيَ ذَلِكَ الثَّوَابُ شُكْرًا وَجَعَلَ نَفْسَهُ شَاكِرًا، وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَى هَذَا الْمَقْ ِدِ إِتْبَاعُ ِفَةِ شَكُورٌ بِ ِفَةِ حَلِيمٌ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ذَلِك من حمله بِعِبَادِهِ دُونَ حَقٍّ لَهُمْ عَلَيْهِ سُبْحَانَه، وَأَمَّا وَ ْفُ بِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَتَتْمِيمٌ لِلتَّذْكِيرِ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ مُنَاسَبَتِهَا للترغيب والترهيب اللَّذين اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِمَا الْآيَاتُ السَّابِقَةُ كُلُّهَا لِأَنَّ الْعَالِمَ بِالْأَفْعَالِ ظَاهِرِهَا وَخَفِيِّهَا ٰ يُفِيتُ شَيْئًا مِنَ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا بِمَا رَتَّبَ لَهَا، وَلِأَنَّ الْعَزِيزَ ٰ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، والْحَكِيمُ: الْمَوْ ُوفُ بِالْحِكْمَةِ ٰ يَدَعُ مُعَامَلَةَ النَّاسِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ مِنْ وَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا وَنَوْطِ الْأُمُورِ بِمَا يُنَاسِبُ حَقَائِقَهَا، وَالْحَكِيمُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى: الْمُحْكِمُ، أَيِ الْمُتْقِنُ فِي ُنْعِهِ وَمُعَامَلَتِهِ وَهُمَا مَعًا مِنْ ِفَاتِهِ تَعَالَى فَهُوَ وَ ْفٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ)).(75)

وأشار (الزمخشري) إلى المعنى الذي ذكره (ابن عاشور) فقال: ((﴿شَكُورٌ﴾ مُجازٍ، أي: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب، وكذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء، فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم))[76]

وأشار (الرازي) إلى قريب من هذا المعنى، مع لفتةٍ في الآية، فقال: ((اعلم أن قوله إن تُقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أي إن تنفقوا في طاعة الله متقاربين إليه يجزكم بالضعف لما أنه شكور يحب المتقربين إلى حضرته حليم يعجل بالعقوبة .... شَكُورٍ مجاز أي يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب وكذلك حليم يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم))[77]

يتضح من النقل السابق أن (الرازي) أشار إلى معنى قريب من المعنى الذي ذكره (ابن عاشور) في معنى (شكور وحليم) ومناسبتهما للسياق.

ثم لفت إلى إشارة في الآية وهي أن فة (العزيز) تقتضي فة (القوي) في هذا السياق، وهذا من باب تناسب الـ فة مع ما سبقها من فات في هاتين الآيتين فقال: ((ثم لقائل أن يقول هذه الأفعال مفتقرة إلى العلم والقدرة والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال عَالِمُ الْغَيْبِ فنقول قوله الْعَزِيزُ يدل على القدرة من عز إذا غلب و الْحَكِيمُ على الحكمة وقيل العزيز الذي يعجزه شيء والحكيم الذي يلحقه الخطأ في التدبير والله تعالى كذلك فيكون عالماً قادراً حكيماً جل ثناؤه وعظم كبرياؤه))[78]

الخاتمة

تبيَّنَ من خلال البحث النتائجُ الآتيةُ:

1. شكّل التناسب السياقي الأ ل الأبرز في نظرية النظم الإعجازي في القرآن الكريم.
2. انضوى اهتمام المفسرين بال فات الإلهية الختامية ضمن اهتمامهم ببيان الإعجاز اللفظي والحالي لفوا ل الآيات.
3. من المفسِّرين الذين لهم عناية أيضاً بهذا النوع من التناسب إضافة إلى ابن عاشور: الزمخشريُّ، وابن عطية، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو السُّعود.
4. غالباً ما تأتي ال فات التي يبيِّن ابن عاشور مناسبَتَها ضمن جملة موقعها موقعُ ا ستئناف التعليلي أو التذييل، وأكثر من ينبِّهُ على ذلك ابنُ عطية وأبو السُّعود.
5. يذكر ابنُ عاشور المناسبة ويف ِّل فيها أحياناً، وأحياناً يذكرها بإجمال دون تف يل، وقد يجمل في موضع، ويف ِّل في موضع آخر نظير له، فيكون التف يل مبيِّناً للإجمال.
6. ذكر ابن عاشور بعض مناسبات ال فات سبق إلى الإشارة إليها بعض المفسرين ممن اعتنى بذكر المناسبات لل فات الختامية، فجاء كلامه بياناً وإيضاحاً لكلامهم.
7. في بعض المواضع يذكر ابن عاشور المناسبة بشكل مقتضب، وربما سبب ذلك أن غيره من المفسرين أوضح هذه المناسبة بشكلٍ مف ّل.
8. قد تكون مناسبة ال فة للآية أو لجملة منها، وقد تكون لمجموعة آيات ضمن السياق العام للآية.
9. تتوارد أقوال المفسرين أحياناً على مناسبة واحدة، وتختلف أحياناً فتعطي ثراءً في أوجه المناسبة، وهذا وجهٌ من وجوه بلاغة هذا الكتاب المعجز.
10. عند ورود فتين في خاتمة الآية يعتني ابنُ عاشور في كثير من المواضع ببيان مناسبة ال فتين للآية، وبيان مناسبة ال فة الثانية للأولى.

المراجع

1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد بن محمد بن م طفى أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ط.ت.
2. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط1، 2004م.
3. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، م طفى ادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 1425هـ.
4. الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، محمد بن سعد القرني، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية، سنة 1427هـ.
5. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.
6. الإيجاز في دراية الإعجاز، محمد بن عمر فخرالدين الرازي، دار ادر ببيروت، ط1، 2004.
7. الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، د/ط.ت.
8. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الجيل ببيروت، د/ط، 1988م.
9. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، المكتبة العـ رية بـ يدا، د/ط، 2005م.
10. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 1998م.
11. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د/ط، 1984م.
12. التناسب السياقي ومستوياته في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، فضيلة عظيمي، رسالة مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي في جامعة محمد لمين دباغين، سنة 2018م.
13. د ئل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مكتبة الإيمان بالقاهرة، د/ط.ت.
14. شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1996م.

15. الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان بالرياض، ط1، 1998م.
16. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار ـادر ببيروت، ط3، 1414هـ.
17. مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، رسالة علمية مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد في جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، عام 1425هـ.
18. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ن ـر الله بن أبي الكرم ابن الأثير، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1، 1988م.
19. المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.
20. المختـ ـر شرح تلخيص المفتاح، مسعود بن عمر التفتازاني، دار التقوى، دمشق، ط1، 2021م.
21. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن زكريا بن فارس، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط1، 1422هـ.
22. مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ.
23. مفتاح العلوم، يوسف بن محمد السكّاكي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1، 2000م.
24. المفـ ـل في علوم البلاغة العربية، عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب، د/ط، 2000م.
25. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، د/ط.ت

---

(1) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د/ط، 1984م، 104/1.

(2) إعجـاز القـرآن والبلاغـة النبويـة، مـ ـطفى ـادق الرافعـي، دار الكتـاب العـربي، بـيروت، ط8، 1425هـ، ص155.

(3) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1996م، ص37.

(4) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، ص39.

(5) ينظر: مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، رسالة علمية مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد في جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، عام 1425هـ، ص13.

(6) ينظر: مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، ص14.

(7) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، ص37، ومباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، ص14.

(8) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، ص63، ومباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، ص24-25.

(9) ينظر: الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، محمد بن سعد القرني، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية، سنة 1427هـ، ص30، ومباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، ص27.

(10) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 7/1.

(11) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن زكريا بن فارس، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط1، 1422هـ، 423/5، مادة (نسب).

(12) لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر ببيروت، ط3، 1414هـ، 755/1.

(13) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 1998م، 969/1، مادة (نسب).

(14) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط1، 2004م، 695/2.

(15) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الجيل ببيروت، د/ط، 1988م، 36/1.

(16) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، د/ط.ت، 5/1-6.

(17) ينظر: التناسب السياقي ومستوياته في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، فضيلة عظيمي، رسالة مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي في جامعة محمد لمين دباغين، سنة 2018م، ص14.

(18) مفتاح العلوم، يوسف بن محمد السكّاكي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1، 2000م، ص84.

(19) المصدر السابق، ص168.

(20) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، المكتبة العصرية بصيدا، د/ط، 2005م، 91/1.

(21) الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، مكتبة الهلال ببيروت، ط3، 2000م، ص32-33.

(22) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مكتبة الإيمان بالقاهرة، د/ط.ت، ص79.

(23) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن أبي الكرم ابن الأثير، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1، 1988م، 269/1.

(24) الإيجاز في دراية الإعجاز، محمد بن عمر فخرالدين الرازي، دار صادر ببيروت، ط1، 2004م، ص33.

(25) د ئل الإعجاز، الجرجاني، ص75.

(26) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، 347/1.

(27) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 342/17.

(28) ويسمَّى كذلك ا ستئناف البياني؛ وهو الذي يكون جواباً لسؤال اقتضته الجملة قبله، وهو من مواضع الف ل؛ أي: ترك العطف، ينظر: المختـ ـر شرح تلخيص المفتاح، مسعود بن عمر التفتازاني، دار التقوى، دمشق، ط1، 2021م، ص404.

(29) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، د/ط.ت، ص355-357.

(30) ينظر: المف ـل في علوم البلاغة العربية، عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب، د/ط، 2000م، ص565.

(31) المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 134/4.

(32) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ، 79/4-80.

(33) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد بن محمد بن م ـطفى أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ط.ت، 121/6.

(34) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 183/18.

(35) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 183/18.

(36) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 18/5.

(37) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 83/10.

(38) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 137/10.

(39) المحرر الوجيز، ابن عطية، 171/4.

(40) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ، 344/23.

(41) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 218/18.

(42) وهذا من مراعاة النظير التي تقدم الحديث عنها.

(43) المحرر الوجيز، ابن عطية، 180/4.

(44) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 187/23.

(45) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، 378/4.

(46) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 238/20.

(47) التذييل: (تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد). المختـ ـر شرح تلخيص المفتاح، التفتازاني، ص467.

(48) المحرر الوجيز، ابن عطية، 314/4، وقوله: (يقتضي) هكذا في النسخة التي بين يدي، ولعله: (تقتضيان).

(49) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان بالرياض، ط1، 1998م، 203/5.

(50) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، 469/4.

(51) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 84/21.

(52) المحرر الوجيز، ابن عطية، 335/4.

(53) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، 248/5.

(54) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 164/21.

(55) المحرر الوجيز، ابن عطية، 350/4.

(56) ينظر: المرجع السابق، الـ نفحة نفسها.

(57) أي: عليم بزمن تحقق وعده الذي هو البعث. ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، 194/21.

(58) المرجع السابق، 199/21.

(59) المحرر الوجيز، ابن عطية، 356/4.

(60) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 134/25.

(61) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 76/22 – 77.

(62) المحرر الوجيز، ابن عطية، 393/4.

(63) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 339/22.

(64) المحرر الوجيز، ابن عطية، 444/4.

(65) ينظر: المرجع السابق، الـ نفحة نفسها.

(66) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 157/7.

(67) ينظر: المرجع السابق، الـ نفحة نفسها.

(68) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 151/26.

(69) المحرر الوجيز، ابن عطية، 127/5.

(70) مفاتيح الغيب، الرازي، 68/28.

(71) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 154/26.

(72) المحرر الوجيز، ابن عطية، 128/5.

(73) الرازي، مفاتيح الغيب، 71/28.

(74) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 106/8.

(75) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 291/28.

(76) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، 79/7.

(77) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 26/30.

(78) المرجع السابق، الـ نفحة نفسها.

التناسب بين الصفات الإلهية والسياق القرآني عند ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) نماذج مختارة دراسة مقارنة تحليلية

ORIGINALITY REPORT

14%	14%	1%	6%
SIMILARITY INDEX	INTERNET SOURCES	PUBLICATIONS	STUDENT PAPERS

PRIMARY SOURCES

1	dspace.univ-setif2.dz Internet Source	3%
2	doaj.org Internet Source	2%
3	ia802901.us.archive.org Internet Source	2%
4	islamiyyat.com Internet Source	2%
5	Submitted to International Islamic University Malaysia Student Paper	1%
6	thesis.univ-biskra.dz Internet Source	1%
7	ia601608.us.archive.org Internet Source	1%
8	mobdii.com Internet Source	1%
	islamweb.org	

9	Internet Source	1%
10	units.imamu.edu.sa Internet Source	1%

Exclude quotes	On	Exclude matches	< 1%
Exclude bibliography	On		